

الفصل السادس

منزلته وتأثيره

١ - في العالم القديم

لقد أجمعت الشعوب ، قديمها وحديثها ، على أن هوميروس كان ومازال أعظم الشعراء ، وأنه أثر على أدباء العالم ومفكريه ، ومازال يؤثر فيهم حتى اليوم .

وصفه نقاد اليونان ، بأنه البداية والنهاية وأنه زميل الصبا والشباب والشيخوخة ، لا نستطيع مفارقه مطلقا ، تغذى بأشعاره كما يتغذى الرضيع بلبن أمه ، وإذا شغلنا عنه ، شعرنا بظما لا يمكن إطفائه إلا بالرجوع إليه .
وليس ذلك بكثير على من كان لليونان معلما ورسولا ، جمع شملهم وتغنى بتاريخ أسلافهم ، فبعث نهضتهم وخاق منهم أمة قوية يؤمنون بدين واحد ويستخدمون لغة واحدة ، يحتفلون بأعياد قومية جامعة ، ويشتركون في مباريات عامة شاملة .

قلده شعراء الملاحم اليونانية تقليداً أعى ، فاستخدموا ألفاظه ورددوا عباراته وحاكوا أسلوبه ونقلوا أفكاره ، واسكنهم كما رأينا ، لم ينظموا ملحمة واحدة في روعة الإلياذة والأوديسا .^(١)

وظهر من بعدهم زعيم الشعر التعليمي ، هيسودوس ، فاستعمل لغة

(١) انظر الفصل الأول : ص ، ١٤ .

هوميروس وأخذ عنه كثيرا من الأساطير واقتبس منه كثيرا من الأفكار الدينية وذكرها في قصيدته « أنساب الآلهة » حتى قال عنهما المؤرخون « إنهما علما اليونان أصول دينهم وأسماء آلهتهم ^(١) » .

وجاء الشعراء الغنائيون واستعملوا صفاته وكنائياته وتغنوا بألحنته ومجدوا أبطاله ونظموا فيهم الأناشيد الدينية ، وأعجبوا بقصائده إعجابا فائقا ، خاصة بنداروس ، زعيم الشعر الغنائي ، الذي تغنى بالإلياذة ورفعهها إلى السماء .

أما شعراء المسرح فقد اعترف أستاذهم إسخولوس بأن مآسيه كانت « فتاتا من موائد هوميروس الحافلة » ، ولا شك أن مسرحياته ومسرحيات زميله سوفوكليس ويوريبيديس كانت تتخذ موضوعاتها من الأساطير الهومرية وتحوم حول أبطالها .

وشهد أفلاطون بأن شاعرنا كان أحكم الحكماء وأنه معلم اليونان الأول ^(٢) ، ولقبه أرسطو بامير الشعراء وأثنى عليه ثناء عاظرا في كتابه فن الشعر ^(٣) .

ثم جاء نقاد الإسكندرية وتخصصوا في تحليل أشعاره تحليلا دقيقا ودرسوا لغتها دراسة مفصلة وشرحوا معانيها شرحا وافيا فيسروا حفظها وساعدوا على نشرها ، وكان لهم الفضل أيضا في تقسيمها إلى أناشيد والتعليق عليها ، وكانت تعليقاتهم غاية في القيمة رجع إليها المحدثون وأفادوا منها كثيرا .

(١) هيرودوت : الجزء الثاني : الفصل ٥٣ .

(٢) هذا لا يمنع أن الفيلسوف عاب عليه الإكثار من وصف العارك بين الآلهة واعتبرها مفسدة لأخلاق الشباب .

(٣) فن الشعر : ٢٣ : ١١٤٥٩ .

ولا أدل على سمو منزلة هوميروس عند اليونان من أن روائع المسرح كانت لا تمثل إلا مرة واحدة بينما كانت تنشد اشعاره في مختلف الأماكن والمناسبات ، خاصة في أعياد الپاناثینیا ، ومع ذلك لم يسأم الناس ترتيلها بل كانوا يتسابقون لسماعها ويتنافسون في تكريم منشديها . ولقد أدرك الخطباء قوة تأثيرها على السامعين فاكثروا من الاستشهاد بها في خطبهم (١) .

ولم يكن الاهتمام بهوميروس قاصرا على الأدباء والعلماء ، ولكن فاقهم في ذلك الملوك والأمراء ؛ أعجب به الاسكندر الأكبر إعجابا شديداً حتى أن الإلياذة أصبحت كتابه المفضل الذي لا يفارقه ويقال إنه كان يحتفظ بنسخة منها في صندوق مرصع بالجواهر (٢) .

واقضى البطالمة أثره في تمجيد الشاعر ، فاهتم بطليموس الثاني بجمع أشعاره وشجع العلماء على دراستها ونشرها في مخطوطات علمية دقيقة ، وأمر بطليموس الرابع بعبادته وتأليه (٣) .

وكانت تلك أبلغ آيات التمجيد لمن أصبح عند اليونان رمزاً للتفوق والنبوغ وصار اسمه لقباً لكل عبقرى من عباقرتهم ؛ فافلاطون سمي هوميروس الفلسفه ، وسوفوكليس هوميروس الشعر التمثيلي .

وكان شاعرنا نموذجاً لشعراء الرومان أيضا ، بددوا بترجمته إلى لغتهم

(١) يروى أن الخطيب اسخينيس استشهد في إحدى مرافعاته بفقرة طويلة من الإلياذة ثم التفت الى كاتب الجاسة وطلب إليه أن يقرأها ، فتلاها الكاتب من الذاكرة واعتبر الحاضرون ذلك أمراً طبيعياً .

(٢) بلوتارخوس : الإسكندر الأكبر : ٢٦ .

(٣) ايليانس : ١٣ : ٢٢ .

واعتبروا ملحمة أول عمل أدبي تجب عليهم تلاوته. فنقل شاعرهم ليشيوس أندرونكوس الأوديسا إلى اللاتينية وأصبحت كتابا هاما في المدارس الرومانية يحفظه التلاميذ عن ظهر قلب. ثم ظهر إنيوس وقال إنه رأى هوميروس في الحلم يقترب منه ويؤكد له أن روحه تقمصت جسم زميله الروماني وأنها ستلهمه وتجعل منه « هوميروس إيطاليا »، ويرى بعض النقاد أن هذه الرؤيا هي التي شجعت إنيوس على اقتباس عبارات هوميروس وتقليد أسلوبه ونقل أوصافه واستخدام وزنه مما جعل ملحمة « الحوليات » تفيض بروح أستاذه وتكسبه مجدا عظيما، فلقد من أجلها « هوميروس الثاني » (alter Homerus). ولما قرأ شيشرون الملحمة قال إنه لا يحتاج الرجوع إلى الإلياذة والأوديسا إذ يمكنه الإطلاع عليهما في اللغة اللاتينية بعد أن ترجم إنيس جزءا كبيرا منهما في حولياته. ولكن من الغريب أن شعر هوميروس الذي نظم قبل الملحمة اللاتينية بزمان طويل جدا كتب له الخلود في حين أن الحوليات قد أندثرت ولم يبق منها إلا سطور قليلة يكاد لا يعرفها ولا يسمع بها إلا مختص علم.

ولم يبدأ القرن الأول قبل الميلاد إلا وأصبح تأثير هوميروس شاملا في الأدب اللاتيني، واضحا في جميع المؤلفات وضوحا تاما. فترى شيشرون يقوم بترجمة فقرات متباينة من الإلياذة والأوديسا، ونراه في إحدى خطبه يمجّد هوميروس ويردد كلمات الإسكندر التي يغبط فيها اخيليوس لأنه وجد شاعرا يعظمه ويمجّد ذكره، ثم يضيف قائلا: « لقد صدق القائد العظيم لأنه لولا هوميروس لأصبح بطل اليونان نسيا منسيا بعد موته ». وكذلك تفيض رسائل شيشرون بإشارات إلى هوميروس وتحتوى على كثير من عباراته وتشبيهاته وتشتمل على فقرات كاملة من شعره

ولم يقتصر الأمر على شيشرون ، بل إن الساسة في عصره كانوا يعرفون
هوميروس معرفة تامة ، يحفظونه ويرددون سطوراً منه في المناسبات
المختلفة ، فعندما يشاهد القائد المشهور مكيبو مدينة قرطاجه والنار تشتعل
فيها يتذكر الآيات التي يتنبأ فيها هكتور بمصير طرواده وانهيار عرش آبيه
وهلاك شعبه ، ولعل القائد الروماني كان يتنبأ بدوره بمصير روما الذي كان
ينتظرها بعد تدبير قرطاجه . وعندما سمع القائد نفسه بموت تيبيريوس جراكس
ردد كلمات أثينا التي قالتها عند موت ايجثوس : « فليهلك كل من يرتكب
مثل هذا الإثم » . وعندما كان بروكس في مرة من المرات على وشك
الرحيل ، ذهبت زوجته لتوديعه ، وحدث أن وقع نظرها على لوحة تصور
وداع هكتور وأندروماخا فبكت ، فقال أحد الحاضرين : « أى هكتور !
أنت أبى وأمى وأنت أخى وأنت زوجى العزيز » ، وابتسم الزوج ورد عليه
قائلاً : ولكن زوجتى سوف لا تعود إلى المنزل وتنصرف إلى غزلها
ونسجها كما كانت تفعل أندروماخا .

واباطرة الرومان أيضاً كانوا يقتبسون سطوراً من هوميروس
ويستشهدون بها ؛ فيروى أن أغسطس ردد على مسامع ابنته التي جلبت عليه
العار كلمات هكتور التي قالها لپاريس : « ليتك مت قبل الزواج أو ليتك
لم تولد قط » . ويقال إن كاليجولا الأرعن ونيرون الطاغى وكلوديس
وغيرهم من الأباطرة كانوا يعرفون هوميروس معرفة تامة ويحفظون شعره
عن ظهر قلب .

ولكن تأثير هوميروس يتضح وضوحاً تاماً في شعر ثلاثة من أعظم أدباء
الرومان هم : هوراس وأوفيد وثرچيل (Horatius, Ovidius, Vergilius) .
أما الأول فكان أكثر شعراء روما تأثراً بأدباء اليونان لأنه كان فناناً

بطبعه ، هادئا في تفكيره ، رقيقاً في عواطفه ، رشيqa في عباراته ؛ قرأ مؤلفاتهم ودرس أشعارهم وأفاد منها في نظم قصائده ، ولكنه لم يقتبس من أى من شعرائهم بقدر ما اقتبس من هوميروس^(١) . لقد أعجب به أشد الإعجاب ، واعتبره المورد العذب الذي نهل منه كتاب اليونان والرومان جميعاً ، ثم أطرى فيه إطاراً بالغاني كتاب فن الشعر (Ars Poetica) وقال : « إنه لا يضرم ناراً يتصاعد منها الدخان ، بل من دخانه تسطع الأنوار ، ووسيلته في ذلك أن يطلعنا على عجائب الأمور شيئاً فشيئاً ، ويتعجل العقده ويسرع بسامعه إلى جوهر القصة كما لو كان يعرفها من قبل ، ثم هو لا يحاول تنميق مالا يفيد فيه التتميق ، وإذا أطلق لخياله العنان لام بين ما هو حق وما هو باطل ملامة ترفع التناقض فيستقيم وسط القصة مع بدايتها ، ونهايتها »^(٢) .

أما أوفيد فنظم مجموعة من الشعر تسمى « Metamorphoses »^(٣) تحدث فيها عن كثير من روايات اليونان والرومان ، ووصف التغيرات التي أصابت أبطال هذه الأساطير عقاباً لإثم ارتكبوه أو جزاءً لخير فعلوه . وهذه القصائد مليئة بموضوعات مستمدة من أشعار هوميروس ، اقتبس بعضها من الإلياذة ، فتكلم عن شجاعة أخيليوس ، وبسالة ديوميديس ، ومنزلة يولوفيموس بين أقربائه من الكوكلوپيس ؛ واقتبس البعض الآخر من الأوديسا ، فوصف لنا حب كركي لأودوسيوس ، ورغبتها في الاحتفاظ به

(١) خاصة في الأغاني (carmina) والأحاديث (Sermones) .

(٢) فن الشعر : ١٤٨ وما بعده .

(٣) « تغيير الأشكال أو الوجوه » . والمقصود بذلك نسخ الأبطال والنساء وتغيير أشكالهم أو تحويلهم إلى حيوانات أو طيور أو أشياء أخرى .

لنفسها ومنعه من العودة إلى اثينا كا .

وكان أوفيد تلميذا وفييا لهوميروس ، حافظ على روايته وحكاية في سرد تفاصيلها ونجح في تقليده إلى حد كبير حتى أنه لقب « بابرع الرواة » وأحسن الشعراء القصصيين في الأدب الروماني ، لأنه تقمص هوميروس وعرف كيف يروي قصصه بطريقة مشوقة وأسلوب سهل جميل .

ولم يعبر أوفيد عن إعجابه بهوميروس في هذه الأشعار فقط بل كتب مجموعة من الرسائل سماها « البطلات »^(١) وصف فيها ما أصاب بعض نساء هوميروس من آلام وتعذيب ؛ فصور لنا بانيلوپا تناجي نفسها وتعبر عن البؤس الذي ألم بها لغياب زوجها وتمنى عودته ؛ فإذا ما عاد إليها حدثته عن مجهودها في البحث عنه والعثور عليه ، وروت له همومها وأشجانها وعبرت له عن المخاوف التي ساورتها أثناء غيابه : هل طال بعباده لأن الآلهة أرادوا أن يعاقبوه ؟ أم لأن عشيقته أغرته واقنعتة بنسيان زوجته ؟

تلك الخواطر وغيرها وصفها أوفيد في الرسالة التي بعثت بها ملركة اثينا كا إلى زوجها ، وهي ، كما نرى ، صورة أمينة لما ورد في الأوديسا ، تسكاد تكون ترجمة لاتينية لأفكار هوميروس وعواطفه .

وروى أوفيد أيضا قصة برسيس التي وصفتها في رسالة بعثت بها إلى أخيلئوس بعد أن إغتصبها اجامنون ، عبرت فيها عن حبها له وحنينها إليه وحزنها لابتعادها عنه . ومع أن أوفيد تصور هذه الرسالة وابتكرها من بنات أفكاره إلا أنه أستلهم موضوعها من حوار أخيلئوس واجامنون

(١) Heroides : وهي مجموعة تتكون من إحدى وعشرين رسالة نظمها الشاعر على لسان نساء هوميروس وغيرهن من بطلات الأساطير ، بعثن بها إلى أزواجهن أو عشاقهن ما عدا رسالتين أرسل باريس إحداهما إلى هيلينا والثانية أرسلها لياندر إلى هيريو .

عندما دب بينهما النزاع ومن خطبة أوديسيوس عندما ذهب لاسترضاء بطل اليونان .

كما وصف مشاعر هيلينا التي عبرت عنها في ردها على إحدى رسالات عاشقها باريس ، ولقد أغفل الشاعر الروماني ، في قصيدته ، جميع الروايات التي وردت عند الكتاب اليونان وأخذ برواية هوميروس . فدافع عن هيلينا وتغنى بطهرها وعفافتها لأنها قاومت باريس ولم تستجب لتوسلاته ، ورفضت هداياه ولم ترض بالرحيل « لأن الوطن أعز من كل شيء » ، حبه مقدس ، وسحره عظيم « فهي لا تستطيع أن تبعد عنه أو تهجره . وكيف ترحل مع باريس وتترك بيتها وابنتها وزوجها ؟ وماذا تقول عنها نساء اليونان ؟ وماذا يكون موقفها في طرواده ؟ وماذا تكون سمعتها في هيلاس ؟ كل هذه الأفكار جالت بخاطرهما فتمسكت بأهداب الفضيلة وحافظت على كرامتهما وصانت عرضهما ، فبدت طاهرة وفيه كما كانت في الإلياذة والأوديسا

ولم يكتف أوفيد باقتباس الموضوع بل كتب هذه الرسالة بأسلوب هوميروس وصاغها على طريقته الروائية الساحرة فاستحق المدح والثناء .

ولكن تأثير هوميروس يظهر بوضوح وجلاء في الأنيادة^(١) ، تلك الملحمة التي نظمها فرجيل بعد أن تلا الألياذة والأوديسا عدة مرات ، وبعد أن تشرب روحهما وحفظ أجزاء كبيرة منهما فجاءت ملحمة صورة مصغرة لها تفيض بمناظرهما . ومع أن الشاعر مات قبل أن ينتهي من نظمها

(١) أشهر ، لاحم الأدب اللاتيني وأعظمها ، تتكون من اثنتي عشرة أنشودة وصف فيها الشاعر المغامرات التي قام بها أيفياس الأمير الضروادي منذ أن غادر بلده بعد تدميرها حتى وصل لإيطاليا وأقام بها فكان الجد الأول للشعب اللاتيني (*gens unde Latium*) ، انظر الإنيادة ، ١ : ٦ - ٧ .

وقبل أن يراجعها وبصقلها ، لكنها كانت ، رغم ذلك ، على درجة عظيمة من الإتقان حققت له خلوداً يعزوه النقاد إلى تأثيره باستاذة هوميروس .

حقاً إن هناك فارقاً جوهرياً بين ملاحم الشعراء لأن هوميروس صور العالم الذي أحاط به وأحاط بسامعيه بينما تصور فرجيل عالماً لم يوجد إلا في خياله ولم يعرفه إلا هو . فبطله أيُناس يحب اصقاعاً ويأتى أعمالاً لا وجود لها في ذهن الشاعر « الفقيه » الذي أراد أن يطلعنا على عمق ثقافته وسعة اطلاعه ، متأثراً في ذلك بالشاعر السكندري أبولونيوس الرودسى ، لذلك احتوت ملحمة على فقرات معقدة ومعلومات غزيرة لا تمت إلى الموضوع بصلة . ولكن هذا العيب لم يمنع النقّاد من اعتبارها صورة للإلياذة والأوديسا معاً ، نصفها الثانى يحاكي الإلياذة ، وهى تعتمد عليهما اعتماداً تاماً في تصوير العواطف ووصف المعارك ، بل إنها تتخذ لها بطلاً من شخصيات الإلياذة يتعرض لأخطار ويقوم بمغامرات تشبه تلك التى وصفها هوميروس في الأوديسا .

فأيُناس كأوديسيوس يصف آلامه ومتاعبه وبصور عواطفه واحساساته ويتكلم عن نفسه بنفس طريقتة ، بل ويمر بالمناطق التى مر بها بطل الأوديسا والأماكن التى اقترب منها ؛ وعندما يصف فرجيل الألعاب التى أقيمت تمجيداً لأنخيسيس Anchises يردد ما قاله هوميروس في وصف المباريات التى أجريت تعظيماً لذكري باتروكلوس ، مع أن الرومان لم يهتموا بالمسابقات الرياضية لأنها لم تتصل اتصالاً وثيقاً بحياتهم كما اتصلت بحياة اليونان .

ولقد زار أيُناس عالم الموتى ليستطلع رأى أنخيسيس كما استطاع

أوديسيوس رأى تيرسياس . ولقد وصف فرجيل الحرب واسلحتها كما وصفها هوميروس ، وحدثنا عن طرق الدفاع والهجوم وصور لنا المبارزات على غرار ما ورد في الإلياذة ، فالمعركة بين أينياس وتورنس (Turnus) تشبه تماما تلك التي وقعت بين اخيليوس وهكتور . فتورنس يتردد في مواجهة أينياس ويفر أمامه وعندما يضطر إلى مقابلته يتوسل إليه أن يعفو عنه ويطلق سراحه ، فيمتنع أينياس أول الأمر ، ثم تهدأ نفسه ويفكر في إخلاء سبيله ، ولكن سرعان ما يستولى عليه الغضب فتثور ثأثرته ويقتل خصمه لينفذ مشيئة القدر .

يتضح من ذلك أن الإنيادة تشبه ، إلى حد بعيد ، شعر هوميروس حتى قال النقاد إن القارىء ، أثناء تلاوته لها ، يذكر دائما الإلياذة والأوديسا ويسمع أصداها ، انه تذكروها من عنوانها ومن شكلها الخارجى ومن تفاصيلها لأنها تحتوى فى كل صفحة من صفحاتها على فقرات مترجمة من هاتين الملحمتين ، ويظهر انه كان يستحيل على فرجيل ان ينظمها اذا لم يقرأهما^(١) لانه وجد فيهما موردا لا ينضب اوحى اليه بالفكره وأمدّه بكثير من المعلومات ، فظم ملحمة التي تغنى فيها بعظمة اوغسطس وعظمة الامبراطورية .

ولقد أصبح هوميروس ، منذ عصر اوغسطس ، معروفا للجميع ، كان الطلاب يحفظونه ويقتبسونه فقرات في كتاباتهم ، وبدأ الشعراء يكتفون من الاشارة اليه في قصائدهم ، واخذ النقاد ينصحون بتلاوة أشعاره ويحتمون تلقينها في المراحل الأولى بالمدارس المختلفة .

(١) وذهب بعض النقاد إلى حد المبالغة عندما وصف الإنيادة بأنها أحسن طبعة ظهرت للأشعار الهومرية .

انظر : Scott (J. A), Homer & His Influence, p II7 حيث يذكر كلمات أحد النقاد في هذا الصدد :

ut mihi optima Homeri editio Virgilianum poema videatur.

ويحدثنا الشاعر جوفنال (Juvenalis) عن أندية خاصه للسيدات المتفقات كانت تشكل فيها لجان لدراسة هوميروس وفرجيل دراسة عميقة مفصلة .

وزالت دولة الرومان وظهرت المسيحية وتبعها النهضة الأوروبية ولم تستطع القرون العديدة ان تضعف من تأثير هوميروس لان شعره بقي يحتل اسمى منزلة حتى في عصور الجهالة والظلمة التي انقرضت فيها اللغة اليونانية ، فكان الناس يتلون في الترجمات اللاتينية ويعشقون معانية ويعجبون بأفكاره ، وبذلك لم تنقطع صلتهم به ولم يتوقف تأثيره عليهم . ولما اشرقت النهضة الأوروبية وصحت أوروبا من سباتها العميق وجدت أمامها تراثا ضخما يجب ان ترجع اليه لتكمل منه مختلف المعارف الانسانية .

ففي ايطاليا ظهر دانتى واعتبر هوميروس سيد الشعراء وتأثر به إلى حد بعيد فاتخذ تلميذه فرجيل^(١) ، مرشدا له في رحلته إلى الجحيم ، واختار الكتاب السادس من الانبياء واستمد منه كل ما احتاج اليه لوصف هذه الدياجير المظلمة ، وهذا الكتاب ما هو الا ترجمة للنشيد الحادى عشر من الأوديسا . ويعتبر القرن الرابع عشر الميلادى تاريخا هاما في تطور الحضارة الأوروبية لأن علماء ايطاليا وادباءها بدءوا يرجعون في ذلك الوقت إلى المخطوطات اليونانية لأشعار هوميروس .

(١) لأنه اعتبره رمزاً للحكمة وقال عنه : « أنت مرشدى ، وأنت سيدى ، وأنت

أستاذى » .

فبتاراك يكتب لأحد أصدقائه ويشكره على هدية أرسلها له ويقول: « لقد أرسلت لي اسمي عطية في الوجود ، لا تليق إلا بمهديها ولا تسر إلا عاشقها . لقد اعتاد الناس أن يتبادلوا هدايا من الذهب والفضة وقطعا من الحلي والجواهر ، ولكنك بعثت إلي هوميروس ، وإي هوميروس ! في لغته النقية التي لا تشوبها شائبة : آه ! لئنك جئت مع هديتك النفيسة ! إن شاعرك لا يتغنى لي لأن أذني لا تستطيع التمتع بغنائه ، ومع ذلك فأنني سعيد برؤيته ، أعانقه عناقا طويلا وابته شوقي وأعبره عن رغبتي في سماع انشاده » .

وبقي بتاراك يعاني لوعة الحرمان عدة سنين لأنه لم يجد شخصا يساعده على تلاوة هوميروس وأخيرا عثر على يوناني يجيد اللاتينية ورجم له بعض الأناشيد فأعجب بها بتاراك وزميله بوكاشيو إعجابا شديدا دفعهما إلى تشجيع هذا اليوناني على ترجمة الإلياذة والأوديسا نثرا ، ودعاه بوكاشيو إلى فلورنسه ليقيم في داره ويدفع له بتاراك نفقات إقامته حتى أتم عمله الضخم وقدم لبتاراك المخطوطات التي كتب فيها ترجمته ، وما زالت هذه موجودة في المكتبة الأهلية بباريس ، نقرأ في هوا مشها الملاحظات التي دونها بتاراك بخط يده . ويقال إنه مات وبين يديه هذه النسخة التي كان يدرسها بشغف عظيم وعناية فائقة . ولم يكن بوكاشيو اقل إعجابا بهوميروس ، فقد أفاد منه في كتاباته عن أنساب الآلهة وفي تعليقاته عن الكوميديا الإلهية .

وهكذا عمل بتاراك وبوكاشيو معا على انعاش الآداب الأوربية بأحياء هوميروس وبعثه من جديد ، ويرجع إليهما الفضل في تشجيع الإيطاليين على دراسة اليونانية وحثهم على قراءة الإلياذة والأوديسا

فأقبلوا على شراء المخطوطات اليونانية وتسابقوا في نقل نسخ منها وفي عام ١٤٨٨ صدرت في فلورنسه أول طبعة للطبعتين ، ظهرت من بعدها طبعات أخرى في البندقية وروما وستراسبورج .

وعندئذ اهتم ادباء ايطاليا بدراسة الملاحم اليونانية وبدأ رجال الدين يعكفون على تحليل اشعار هوميروس وفرجيل ويكتبون عنهما الابحاث والمقالات ويفاضلون بينهما لأن هوميروس كان في رأيهم اعظم استاذ في فن الملاحم وان فرجيل كان انبع تلا ميذه .

وفي منتصف القرن السادس عشر ظهر شاعر ايطاليا المشهور تاسو توركواتو ، وفكر في نظم ملحمة يتغنى فيها بالحروب الصليبية على طريقة هوميروس ، لذلك عكف على قراءة الإلياذة ودراستها وكتب عنها مجموعة من المقالات والابحاث ، ثم بدأ في نظم ملحمة المشهورة (تحرير بيت المقدس) . وتحتوى على اشارات عديدة للإلياذة والأوديسا وتستمد منهما كثيراً من التفاصيل . فطلعها يشبه مطلع الأوديسا في الايات الاربعة الاولى ، ومعاركها صورة صادقة لمعارك الإلياذة ، واحداثها تشبه الاحداث الهومرية . فرئيس الحملة يرى حذاً مثل أجائمنون ، والاعداء يتعرفون على قواد المسيحيين من فوق أسوار المدينة المحاصرة كما حدث في الشيد الثالث من الإلياذة ، والطرفان المتحاربان يتفقان على شروط للهدنة ويوافقان على عمل مبارزة بينهما لتقرير مصيرها ، لكن قذيفة طائشة تطلق من يد آثم فتشعل نار الحرب من جديد كما حدث عندما تبارز باريس ومنيلاوس؛ وثرستيس يشور على القائد الأعلى ويهاجمه كما فعل في الشيد الثاني من الإلياذة .

يضاف إلى ذلك أن ملحمة تاسو تفيض بأشارات وعبارات وتشبيهات يصعب على القارئ فهمها إذا لم يكن ملماً بأشعار هوميروس ، وكان تاسو ينقل منها نقلاً حرفياً ، فاخذ عنها بعض المعلومات الجغرافية ولم يحاول تصحيحها في ضوء ما كان معروفاً في أيامه . فعندما يتحدث عن المسافة بين جزيرة فاروس ومصر ، يتبع رواية هوميروس ويؤكد أن فاروس بعيدة عن مصر وأن السفينة السريعة تستغرق يوماً كاملاً لقطع المسافة بينهما ، مع أن تاسو كان يعرف ، كبقية الناس في عصره ، أن فاروس جزء من مصر لكن إعجابه بهوميروس أنساه الحقائق الجغرافية .

ولقد تحمس تاسو لشاعر اليونان وتخصص في إظهار ميزات وحسناته وبين الفرق بينه وبين كتاب الغرب في ذلك الوقت ، ومن كلامه في هذا الصدد : « لو سلمنا بوجود شيء خالده بين البشر الفانين ، فهذا لن يكون إلا شعر هوميروس ، لا يعلو إليه النقد ولا ينال منه الزمان » .

ولم يبدأ القرن الثامن عشر إلا وكان جميع الأدباء في إيطاليا يعرفون هوميروس معرفة تامة ويعتبرون الجمل بأشعاره نقصاً معيياً في ثقافة الأديب وذاعت شهرته في أوروبا كلها حيث انتشرت أشعاره واكسبته منزلة سامية .

٢ - فى العالم الحديث

لم تكن انجلترا أقل إهتماما بدراسة هوميروس، ولم يكن أدباؤها أقل تأثرا بشعره ؛ صورته شوسر فى قصائده وتغنى بأشعاره ومجد عبقرته ؛ ومن أجله فرض توماس مور تعليم اليونانية فى مدينته الفاضلة حتى يتمكن أهلها من قراءة شعر هوميروس وشعر غيره من أدباء اليونان ويظهر ان انجلترا استجابت للقرار الذى أصدره مجلس الشيوخ فى مدينة مور فجعلت تعليم اليونانية إجباريا فى جميع المدارس والجامعات .

وفى القرن السادس عشر عكف كثير من أدباء انجلترا على ترجمة الإلياذة والأوديسا ، فظهرت ترجمة واتسون وترجمة تشابمان التى يعزى إليها الفضل فى إدخال الملحمتين ضمن برامج الدراسة فى جميع مراحل التعليم .

فكان من الطبيعى اذن ان يتأثر شعراء الانجليز وكتابهم بهوميروس ، فنقلوا عنه كثيرا من الأساطير كما فعل آدموند سپنسر (١٥٥٢ - ١٥٩٩) فى ملحمة « ملكة الجان » (Faerie Queene) التى صاغها على طريقة الملاحم الهومرية وملاها بلوحات ومناظر استمدتها من الإلياذة . وكان الشاعر يفتخر بأنه يعرف هوميروس معرفة تامة وبأنه يحب تقليده .

ولم يستطع شكسبير نفسه إغفال هوميروس رغم اختلاف الفن الذى نظم فيه كل منهما . فكثير من مسرحياته تحتوى على عبارات منه وتتضمن فقرات من ملحمتيه . وفى مسرحية هنرى الرابع بنطق ووروك (Warwick) بعدة أبيات تلخص النشيد العاشر من الإلياذة ، وفى قصيدة ترويلس وكريسيدا

(Troilus & Cressida) يصور شخصية ترويليس كما صور هوميروس في النشيد الثاني من الإلياذة وينطقه بنفس العبارات والألفاظ .

ولكن روح هوميروس كانت أقوى تغلغلا في شعر ملتون لأنه اتخذ من شاعر اليونان صديقا حميما لازمه منذ الصبي حتى آخر الحياة ، تأثر به وأحبه منذ أن كان تلميذا بالمدرسة الثانوية ، فدرس قصائده وألم بتفاصيلها ، وكان يحلم دائما بنظم ملاحم مثل الإلياذة والأوديسا . وفي سن العشرين عبر عن ذلك بقوله في إحدى المقطوعات (١) :

وليتني أتغنى كما تغنى يوماً ديمودوكس الحكيم في مأدبة الكينوروس فأثار أشجان أودوسيوس الحزين واستولى بأنغامه العذبة على جميع الحاضرين .

ومع مرور الأيام تحققت أمنيته فنظم قصائد تكاد تكون هومرية في موضوعها وتركيبها ، منها قصيدة كومس (Comus) .

وكوموس هو ابن الساحرة كركي يقوم عند ملتون بنفس الدور الذي قامت به أمه في الأوديسا ، فقدم لضيفه شرابا حولهم إلى دواب كما حولت كركي أتباع أودوسيوس إلى خنازير ، ثم تجرى حوادث القصة كما جرت في الأوديسا ، يشترك فيها آلهة هوميروس وتنتهي الرواية بتخليص البطلة من أثر السحر وتحريرها من سيطرة كومس كما تخاض أودوسيوس وتحرر من قبضة أمه .

ومع أن ملتون استمد هذه القصة من أشعار هوميروس إلا إنه لم ينجح في تقليده في نظم الملحمة لأنه لم يتشبع بروح شاعرنا إلا بعد وقت طويل عندما أنشأ ملحمة المشهورة الفردوس المفقود ، فهو في هذه القصيدة لم ينقل عن شاعر الإلياذة فحسب بل تقمص روحه وبرع في تقليده حتى وصفه

(١) ألفها عندما بدأ ينظم الشعر وهو طالب بالسكينة وعنوانها : « تمرين أثناء العطلة

نقاد الانجليز بأنه أبرع من قلدوه وأنه ارتفع إلى مستواه في نخامة الأسلوب وروعة الأنغام (١).

ولقد اعترف ملتون في مقدمة كتابه بأنه قد اقتنى أثر هوميروس وقلده في مطلع القصيدة وفي نهايتها ، واستخدم تشبيهاته واستعمل صفاته ، فوصف عصا الشيطان كما وصف هوميروس عصا الكوكلوپس ، وصور هيفايستوس كما صور هوميروس ، وكان ملتون في وصفه وتصويره ينقل فقرات بأكملها ويستغلها في ملحمة أحسن استغلال ، ومع أن ملتون بلغ ، في رأى بعضهم ، ما بلغه هوميروس من سمو في الأفكار إلا أنه لم يجمع بين السمو وبين البساطة كما فعل أستاذه ، وهذا هو الفرق بين الشاعرين . و فرق آخر هو أن ملتون لم يستطع أن يصور مئات الشخصيات الذين صورهم هوميروس من الطبقات وأسند إليهم مختلف الأعمال ، فكان ممتعاً للجميع يقبلون على تلاوته لأنه سهل بسيط يفهمونه دون مشقة وعناء ، أما ملتون فلا يقرأه إلا المثقفون الذين يعجبون بلغته ولكنهم لا يتأثرون بموضوع ملحمة كما تأثروا بموضوع الإلياذة والأوديسا لأن شخصيات هوميروس (اخيليوس هيلينا، هكتور، ناستور... الخ) أصبحت جزءاً من التراث العالمى لا توجد في شعر هوميروس وحده بل توجد عند الأدباء جميعاً ، أما شخصيات ملتون فلا وجود لها إلا في ملحمة فقط .

لم يبلغ ملتون إذن ما بلغه هوميروس من مجد ولم يستطع الانجليز أنفسهم أن ينكروا عظمة الشاعر القديم ويعتبروه أستاذاً لملتون وغيره من الشعراء ، وفي ذلك يقول الناقد الانجليزى (٢) :

(١) Scott, op. cit., p. 136

(٢) John Sheffield, Essay on Poetry ، p. 143 ، Scott, op. cit.,

« إذا قرأت هوميروس مرة لن تقرأ بعده أحداً ؛ فكل شعر ، غير شعره ، يبدو ركيكاً مجدباً ، والقريض يصبح نثراً ؛ ولكن استمر في تلاوته وسوف يغنيك عن كافة الكتب . »

وكان دريدن (Dryden) أعظم نقاد انجلترا ، من عشاق هوميروس ؛ قضى كل حياته في نقد أشعاره وإظهار محاسنها ، وترجم الإلياذة ترجمة رائعة ونظم مقطوعات تفيض بروح هوميروس وتمتلىء بفقرات من شعره . ولقد كتب في مقدمة إحدى دواوينه « الخرافات » يقول : « ثبت لي بالتجربة أن هوميروس أكثر امتاعاً من قرچيل لأن شاعر اليونان أكثر ملاءمة لتفكيرى من شاعر الرومان ، فقرچيل يحرك مشاعرك شيئاً فشيئاً في حين أن هوميروس يشرك بقوة ويشعل فيك ناراً لا تخمد مطلقاً . »

وفي أوائل القرن الثامن عشر أصبح تعليم اللغة اليونانية ضرورة اجتماعية في انجلترا ، وفي ذلك يقول فولتير : « إن غالبية الانجليز الساحقة يتعلمون اليونانية ويعرفون آدابها — أى الإلياذة والأوديسا — لأنهما منبع هذه الآداب ، ولقد أيد أدباء انجلترا رأى الناقد الفرنسى ورددوه في قصائدهم ومؤلفاتهم ، خاصة بوب (Pope) إذ يقول في إحدى مقالاته عن النقد : « كرس كل وقتك لتلاوة هوميروس ؛ اقرأ شعره نهاراً ، وفكر في معناه ليلاً تجد أنه أجمل ما أوحى به ربات الشعر ، »

وكان بوب يؤمن بما يقول ويعترف بأنه مدين لهوميروس بكل ما نظم ؛ لقد لغته الرصينه وعباراته الفخمة ، فصبغ قصائده بصبغة جليلة وسمها بموضوعاتها حتى ولو كانت عادية مألوفة ^(١) . ويعزو النقاد عظمة بوب وشهرته في انجلترا إلى أنه ترجم هوميروس وكتب عنه مقالات عديدة أكسبته ثروة طائلة ومجداً عريضاً لم تحققه دواوين الشعر التى نظمها .

(١) مثل قصيدته المعروفة « اغتصاب خصلة الشعر » (The Rape of the Lock)

أما شعراء الملاحم في القرن الثامن عشر أمثال بلاك مور وجلوفر (Blackmore, Glover) فكانوا مجرد مقلدين لهوميروس ومنافسين له، ولم يستطع أحدهم بلوغ مستواه أو الاقتراب منه.

ومع أن أدباء إنجلترا حملوا، في أواخر القرن الثامن عشر، حملة شعواء على الأدب الكلاسيكي، واتجهوا إلى التبسيط والتجديد فانهم لم يستطيعوا اغفال هوميروس أو التقليل من شأنه، بل نادى زعيمهم كوبر (Cowper) بترجمة الإلياذة والأوديسا ترجمة حديثة سهلة ليتسنى للجميع الإطلاع عليهما والتمتع بقراءتهما.

وبذلك أثر هوميروس على أدباء إنجلترا في القرن السابع عشر والثامن عشر تأثيراً قوياً جداً حتى قال بعض النقاد، إن تأثيره في أدب تلك الفترة كان أشد من تأثير شكسبير نفسه، (١).

ومع أن شعر الملاحم أخذ في الإضمحلال واقترب من نهايته في القرن التاسع عشر وإن ما نظم منه لا يشبه أشعار هوميروس ولا يمت إليها بصلة، إلا أن أدباء هذا العصر كانوا أيضاً يفتخرون بتقليد هوميروس وتلميذه فرجيل. فمثلاً يصف بايرون (Bayron) قصيدته «دون جوان»، بأنها ملحمة نظمها على غرار الإلياذة والأوديسا والإينادة، ولكنها في الواقع لا تقرن بها ولا ترقى إلى مستواها، لأنها ركيكة مفككة لا أول لها ولا آخر (٢). وكذلك ملحمة «سهراب ورستم» (Sohrab & Rustum) التي نظمها مانيو أرنولد لا يمكن ذكرها مع الإلياذة والأوديسا لأنها من نوع آخر كما قال المؤلف نفسه عندما سماها «قصيدة روائية».

Scott, op. cit., p. 146. (١)

Scott, op. cit., p. 146. (٢)

لذلك لم يخطئ الناقد دكسون (Dixon) عندما اتهم أدباء القرن التاسع عشر بأنهم لم يبذلوا أى مجهود ، لنظم ملحمة بالمعنى الصحيح^(١) . ولكن هذا لا يعنى أنهم أغفلوا شعر هوميروس أو لم يعكفوا على تلاوته ؛ إنهم كانوا يقبلون على قراءته مثل أسلافهم ويعشقون لوحاته ومناظره .

فيحدثنا شيلي (Shelley) بأنه قرأ الإلياذة والأوديسا في شتاء (١٨١٤ — ١٨١٥) ، وأنه اهتم بدراستهما طيلة عام (١٨١٧) . ولقد أعجب هوميروس إعجاباً شديداً وسماه « ملك الإنشاد » ، وتمنى أن يعيش حتى تُبعث اليونان من جديد وتجود بشعر رائع مثل أشعاره .

ولم يكن كيتس (Keats) أقل إعجاباً به ، فنظم مقطوعة لتمجيده عنوانها « إلى هوميروس » ، وحاول تقليده ونجح في محاكاة أسلوبه الفخم .

أما تينيسون (Tennyson) فكان أشد المعجبين بهوميروس في عصر الملكة فكتوريا ، ويقال إنه كان يحتفظ بنسخة من شعره لا تفارقه أبداً وإنه اعتاد أن يترجم الأوديسا لزوجته ويتلوها عليها بصوت مرتفع . وكان تينيسون يصف قصائده بأنها صدى خافت لهوميروس ليس إلا . ولقد نظم الشاعر عدة مقطوعات اقتبس موضوعاتها من الإلياذة والأوديسا ، منها « أكلة اللوتس » ، « أغنية الجوقة » ، « أوديسيوس » .

ولم يكن كتاب القصة الحديثة أقل تأثراً بهوميروس . فعنه أخذوا كثيراً من موضوعات قصصهم . فمثلاً اعتمد ستيفن فيليبس (Stephen Philips) على النشيد التاسع من الإلياذة في كتابة قصته المعروفة « مارپسا » (Marpessa) ، كما اعتمد على الأوديسا في تأليف روايته « أوديسيوس » .

ولقد كان هذا الروائي من أنجح الكتاب في استخلاص قصصه من أشعار هوميروس ، وكان أكثر الروائيين تشبعا بروحه . ولم يكن شاعر الإلياذة والأوديسا موضع تقدير في الأوساط الأدبية وحدها ، بل نال إعجاب المثقفين في إنجلترا كلها . فالعلماء والفلاسفة والساسة اهتموا به اهتمام الأدباء واحبوا اشعاره كما أحبها النقاد والمتخصصون . فاديسون الطبيب ، وهوبس الفيلسوف ، وجلادستون السياسي ، وليف رجل الأعمال وغيرهم كتبوا عنه المقالات وترجموا شعره وحفظوه قبل أن يحفظوا الأشعار الانجليزية (١) .

وإذا انتقلنا إلى الأدب الفرنسي ، وجدنا أن كثيرا من آثاره قد اتخذت موضوعاتها من شعر هوميروس ، وأن هذا الشاعر ألهم الأدباء الفرنسيين أفكارا سامية وأوحى إليهم بمؤلفات مشهورة .

ففينلون (Fénelon) أشهر الروائيين في القرن السابع عشر كتب قصته المعروفة « تليماخوس » ، التي أثرت على كتاب فرنسا وألمانيا تأثيرا عظيما في القرن الثامن عشر ونالت إعجابا شديدا من جميع القراء حتى « قبل إنهم كانوا يشترونها بأى ثمن وإن أقبالهم على قراءتها جعل الناشرين يطبعونها عشرين مرة في أعوام قليلة » .

وهذه القصة الرائعة ماهي إلا تلخيص لبعض أناشيد الأوديسا ؛ فهي تصف الأخطار التي تعرض لها ابن أودوسيوس أثناء البحث عنه والمغامرات التي قام بها ؛ ولم يكتف الكاتب باقتباس الموضوع من الأوديسا بل استمد منها تفاعيل قصته ووقائعها الهامة ، فاثينا ترافق تليماخوس

كما رافقته ورافقت أباه عند هوميروس ، وتليهاخوس يزور عالم الموتى ويثني على يومايوس الراعي الأمين ويعجب بنا وسيكا كما فعل أبوه . وكان للصلة الوثيقة بين الأوديسا وبين قصة تليهاخوس تأثير عظيم في نجاحها وذيوعها .

وفي النصف الأخير من القرن الثامن عشر ولد اندريه شنيه A. Chénier ، الذي حكم عليه بالاعدام في سن الثلاثين تقريبا ، وكان يعد من أعظم الشعراء الذين عاصروا الثورة الفرنسية ؛ كانت أمه يونانية ، فاثرت على ثقافته وحبيت إليه أدب اليونان ، فعشقه وانكب على قراءته وكان طموحا يحلم بأن يصبح « هوميروس فرنسا » فنظم ملحمة من اثني عشر ألف بيت لم يكتب لها أى نجاح وطواها التاريخ في عالم النسيان ، فلم يسمع بها أحد ولم يبق منها إلا شذرات ضئيلة .

ولكن عظمة « شنيه » تعزى إلى عدة قصائد اتخذ موضوعاتها من الإلياذة والأوديسا صاغها في لغة رائعة وعبر فيها عن ذوق أدبي رقيق قلما اتصف به غيره من شعراء عصره . ومع أنه نقل عن هوميروس واستخدم عباراته وتأثر بأوصافه بل والتزم نصه في كثير من الأحيان إلا أنه كان فنانا بارعا استطاع أن يمزج أفكار هوميروس بمشاعره ويتشبع بها ويتمثلها ثم يعبر عنها كأنها تصدر عنه وتنبع من نفسه .

ومن أبدع قصائده تلك التي سماها عودة أوديسيوس (Le Retour d'Ulysse) صور فيها منظراً من النشيد الثاني والعشرين وتحدث فيها عن انتقام البطل من انتوؤس الذي خصومه وأشدهم بأسا . وهذه المقطوعة ، كما وصفها النقاد ، لوحة رائعة ، تفيض حيوية وتمتلىء حماسة لا يصدران إلا عن شاعر معجب بهوميروس تغمص روحه وحفظ شعره ثم صاغه في لغته

الخاصة . فمع أنه صور مقتل انتنوؤس كما وصفه هوميروس إلا أنه طبعه بطابعه الخاص ، تقرأه فتشعر بأنه من ابتكاره لا من ابتكار غيره :

« وفي تلك اللحظة الرهيبة كان انتنوؤس العظيم يمسك في يده كأساً نخباً من ذهب ، به نبيذ شهى براق ، وكان مطمئناً لا يخطر الموت على باله ؛ وما أن وضع الكأس على شفثيه حتى جاءه سهم اخترق حلقه وخرج من من شعره فانقلب رأسه وسقط ، ووقع الكأس من يده ؛ ثم لفظ أنفاسه ومات ، (١) .

وبعد موت انتنوؤس يصف الشاعر المعركة بين أوديسيوس والأدعياء ، ويقول إن البطل أصر على قتلهم جميعاً ولم يتوقف عن إرسال سهامه السامة إلا بعد أن هلكوا عن آخرهم . وهذا ما حدث في الأوديسا تماماً (١) .

وفي لوحة أخرى صور الشاعر الفرنسي موت كسانثوس ، البطل الطروادي ، الذي خر صريعاً في ساحة الوغى ، فبكى شبابه الناضر ، وأسف على موته أسفا شديداً وعبر عن حزنه تعبيراً صادقاً يذكرنا بكلمات هوميروس في النشيد الخامس من الإلياذة .

وكان فكتور هيجو (١٨٠٢ - ١٨٨٥) في طليعة من تأثروا بشاعر الإلياذة والأوديسا . حقاً إنه أحب فرجيل حباً جماً ، واهتم بدرامته وترجم أشعاره في سن التاسعة ، وألف كتاباً عن غرامه بهذا الشاعر ، ذلك لأنه لم يفكر طويلاً في الصلة بين فرجيل وهوميروس ولم يهتم بآدى الأمر بتأثير الثاني على الأول ، ولما نضج واتسعت مداركه أعلن في كثير من كتاباته

أن فرجيل ماهو إلا صورة طبق الاصل من هوميروس وأن هذا الحق بالإعجاب والتقدير لأنه عبقرى ولأن فرجيل ليس إلا مقلداً فنانا .

وكان الكونت دى ليل (Leconte de Lisle) أشد اهتماما بالأدب القديم وأوسع إطلاعاً ، أعجب بالتراث اليونانى وعشق أبطال هيلاس لأنهم كانوا يتصفون بالقوة والجمال ، وعشق أدباءها وحاول أن ينافس شعراءها فى الفنون المتنوعة خاصة فى الملاحم ، والشعر الغنائى . وكانت أشعاره تفيض بنغمة حزينة تعبر عن أسفه لأنه لم يولد أيام هذه الحضارة الزاهرة ولأنه لم يعرف هذا العالم الذى كان يسوده الجمال .

ولقد نظم الشاعر ديوانا يعرف بالأشعار القديمة استمد مواضيعها من هوميروس ؛ فتحدث عن أبطاله (هيراكليس) وأشاد بشجاعتهم ، ووصف عمالقته (الكوكلوپيس) وتغنى بجمال نسائه (هيلينا) .

ومع أن بعض هذه القصائد تحتوى على منات من الابيات (هيلينا) إلا انها تفيض بروح هوميروس وتمتلى " بأساطيره بل ان الشاعر الفرنسى كان يحرص على اقتفاء اثره واتباع روايته . فهيلينا عنده « شقراء فاته ، ممشوقة القد ، جمالها ربانى يستحق التأليه » ، وهى بريئة وفية لزوجها الذى يفتخر بها ويعتز باخلاصها عندما يسمعها تقول :

ديا إلهى اى زوجى الحبيب وابنتى العزيزة ايا للفضيله ايتى اكره ذلك
الطروادى ، كاهن افروديتا ، ذلك الضيف ذو القلب الخداع والكلام
البغيض »

وكان الشاعر الفرنسى يدخل احيانا تغييرات جوهرية على رواية هوميروس ، ففي قصيدة « الكوكلوپيس » نراه بصور هذا العملاق تصويراً

يختلف كل الاختلاف عن تصوير هوميروس له . فبعدان كان فظا مخيفا يسفك الدماء ، أصبح مهذبا ، حسن المنظر ، رقيق العواطف ، أحب جالاته ، من كل قلبه وحاول أن يخطب ودها وينال رضاها ، فقدم لها الورد وأغراها بمختلف الهدايا ، ولكن هذا التغير لا يعنى أن « دى ليل » جرد البطل من صفاته الهومرية فهو ما زال راعيا يتغنى بثروته الريفية ويعد غناته وعزاته ويتخذ تشبيهاته من بيئة الرعاة كما كان يفعل عند هوميروس .

• • •

ويعتبر جيته (Goethe) ، فى الأدب الألمانى ، أكثر من أحب شعراء اليونان ، تلامعظم قصائدهم ودرسها دراسة مفصلة واطلع على آراء النقاد فيها وقرأ مقالاتهم عنها ، خاصة مقالات هردر (Herder) وابحات وود (Wood) التى حببت إليه شعر الاغريق وكشفت له عن خصائصه ومميزاته . فعشقه وعكف على قراءته طيلة حياته واتخذ من هوميروس صديقا محبا ، فضله على غيره من شعراء اليونان والرومان وقربه من نفسه واطال التفكير فى شعره وحرص على تلاوته دائما ، ليبقى فى صحبة الخالدين أبداً .

ومن أهم أعمال جيته التى تأثر فيها بهوميروس قصة هرمان ودوروتيا (Hermann & Dorothea) . وهى قصة شعرية تتكون من تسعة أناشيد نظمها فى الوزن الهومرى وعرضها فى جو ريفى جمع فى وصفه بين بساطة هوميروس وعظمت ، استخدم صفاته وقلده فى تكرار الأبيات والإكثار من النعوت والإطالة فى الخطب ، وحاكاه فى نخامة الأسلوب وقوة العبارة ، حتى أن القارى يشعر أحيانا بأنه يتلو بعض فقرات الأوديسا العنيفة ويظهر أن جيته حاول أن ينقل عن هوميروس ويضيف إلى ما ينقله شيئا من هيسودوس وشيئا من ثيوكريتوس ، ولكنه لم يفلح فى مزج ذلك كله ، فبقيت

مقطوعات الإلياذة والأوديسا أقوى أثراً وأوضح ظهوراً حتى قيل عنه إنه نظم هذه القصيدة على طريقة هوميروس ليثبت أنه مثله .

ومن بين كتاب القرن العشرين الذين تأثروا بهوميروس جيمس جويس (J. Joyce) ، الروائي الأيرلندي المشهور ، كتب قصة سماها « أوديسيوس » أحدثت ضجة كبيرة في أوروبا في السنوات الأخيرة ، كانت وما زالت موضع دراسات متعددة وجدل شديد^(١) .

حاول جويس أن يخفي في قصته معالم الأوديسا التي استمد منها موضوعه ، فغير أسماء الأشخاص وبدل الوقائع لأنه كان من الكتاب الرمزيين لكنه فشل . فقارى الرواية سرعان ما يدرك أنها تعتمد اعتماداً كلياً على الملحمه الهوميرية ، إذ يدور موضوعها حول المغامرات التي قام بها « بلوم » قبل عودته إلى وطنه وزوجه وابنه . . . ولقد مر هذا البطل بكثير من الظروف التي تعرض لها أودوسيوس عند هوميروس . فوقع أسيراً في يد ثلاث نساء تحاولن إغراءه والاستيلاء عليه ولا تسمحن له بالعودة إلى زوجه ، وهؤلاء النساء يقمن بالدور الذي قامت به كالوبسو وكركي وناوسيكيا . وعندما يقع في قبضة العملاق الأيرلندي ألفظ ، نجده يحاول أن يفقا عينه كما فعل أودوسيوس مع الكوكلوپس پولو فيموس . ورغم ما بذله جويس من مجهود في الربط بين أجزاء القصة وإظهار وحدتها فإنها بقيت مفككة ، لا تسلسل في وقائعها ، ذلك لأنه ملأها بكثير من الأحداث الدخيلة التي لا تمت لموضوع القصة بصلة فاصبحت تبعث الملل أحياناً في نفس القارى .

Hight (G.), The Classical Tradition, Oxford, 1949, p. (١)
405—10.

فأودوسيوس عند هوميروس بطل عظيم وإنسان حقيقي ، يظهر على طبيعته فيؤثر فينا تأثيرا عميقا صادقا ، تحل به المصائب ، فيفقد رجاله وتغرق سفنه ويضيع عتاده وماله ، وتلقى به الأمواج خائرا القوى ، عارى البدن ، فيجد نفسه وحيدا ملقى على شاطئ جزيرة نائية لا يعرفها ، وعندما يعود إلى وطنه تضطره الظروف إلى البقاء في كوخ راع متواضع ، يتدثر بملابس شحاذ فقير ، يخاف الاقتراب من قصره أو الكشف عن شخصيته ، وهذه أحداث طبيعية ترتبط ارتباطا منطقيا بعكس ما يجرى في قصة جويس ، فبطله التائه يلبس ، رغم المحن التي تلم به ، ثيابا فاخرة ، ذات أزرار ذهبية وأكمام مطرزة ويمسك في يده عصا عاجية ، وبذلك يبدو غريبا في موقفه ، ويظهر بمظهر مبتذل لا يتفق مع الظروف التي تحيط به

* * *

تلك أمثلة واضحة تشهد بأن هوميروس أثر على أدباء الغرب تأثيرا بالغا . وبأنه احتل بينهم اسمى منزله ، ولقد اعترف بذلك زعيم النقد اليوناني المعاصر . أ . لانج (A. Lang) عند ما قال : « لاشك أن الشعر اليوناني أغنى أشعار الدنيا بروائعه ، ولكن أروع ما فيه الإلياذة والأوديسا فهما أعظم ما جادت به قريحة هيلاس ، ^(١) » .

وذلك رأى جدير بالتصديق لأنه صادر عن ناقد عظيم يعرف عن الأدب القديم والحديث ما لا يعرفه إلا قليل من العلماء الممتازين .

كلمة ختامية

هذا ما انسع له المجال للحديث عن هومير وس وعن ملحمة الخالدتين ،
والموضوع ، كما أشرنا من قبل ، يتسع لكلام لا ينتهى عند حد ، ولكن
لا يسعنا ، ونحن نختم هذا البحث ، إلا أن نستجيب لسؤال ربما جال بخاطر
القارئ منذ بدأ فى قراءة الكتاب ، ذلك السؤال هو :
ما الملحمة ؟ وما معناها الدقيق ؟ وما أنواعها ؟

والأمر هنا يحتاج أيضاً إلى تفصيل مسهب نعرض عنه ونكتفى بالإشارة
إلى الصفات الجوهرية التى تتميز بها الملاحم بكلفة أنواعها .

وتعتبر ضخامة الموضوع أهم هذه الصفات ، ونقصد بالضخامة أن يكون
الموضوع قومياً ضارباً فى القدم يتصل بنشأة الشعب وتاريخه وتطوره ويصف
الأحداث التى ألمت به على مر الأجيال .

أما الأمة التى تنظم لها الملحمة فيجب أن تكون قد خرجت من دور
البداءة وتحررت من عيشة القبائل المتنافرة وبدأت حياة المجتمعات المتألفة
فاستقر بها المقام فى وطن تفتخر بالإنساب إليه وتتفانى فى الدفاع عنه ،
ويجب أن تكون الأمة أيضاً قد بلغت من الحضرة درجة تجعلها تهتم بتراثها
القديم فتستوحيه وتتلس العبرة فيه ، وأن تكون فى مستوى عقلى يؤهلها
لأن تفهم الملحمة وتدرك معانيها وتقبض أحداثها وتتذوق اللغة التى تنظم
بها والموسيقى التى تصاحب إنشادها .

ولسنا فى حاجة إلى القول بأن طول الملحمة شرط من شروطها لأنها

تبلغ أحياناً عشرين ألف بيت ولا تقل عن بضعة آلاف من الأبيات ينظمها الشاعر في وزن بسيط محكم مرن ليسهل عليه تقطيعه وتلحينه وليستسيغ السامع مقاطعه وأنغامه لأن ناظم الملحمة بمعناها الحقيقي كان يهدف إلى إرشادها والتغنى بها على القيثارة ولا يفكر في تدوينها لتلى كغيرها من الآثار الأدبية.

تلك أهم الخصائص التي توفرت في الملاحم القديمة بصورة عامة وفي الملاحم الهومرية بصورة خاصة ، ولا شك أن توفر هذه الميزات وحدها لا يكفي لنظم ملاحم رائعة مثل الإلياذة والأوديسا لأن الروعة تجيء من عبقرية الشاعر وعبقرية أمته ، ومن الظروف الاجتماعية والتاريخية التي تحيط بها ، وهذا كله يختلف ويتفاوت باختلاف العصور والأمم .

ومهما يكن من أمر ، فإن الشعراء لم ينظموا ، بعد هوميروس ، ملحمة واحدة مثل الإلياذة أو الأوديسا ، مما دفع النقاد إلى اعتبارهما إتياجاً فريداً في نوعه يمتاز على الملاحم كلها وخاصة ، ما نظم منها للقراءة ، لأن هوميروس نظم أشعاره لتشد على الناس ، أما غيره من الشعراء فكانوا يدونون قصائدهم ليتلوها القراء . ولقد أدى الاختلاف في الهدف إلى وجود فروق بين هذين النوعين في الملاحم .

فأجزاء الملحمة الشفوية (مثل الإلياذة) تكاد تكون مستقلة لأنها عبارة عن وحدات يمكن فصل إحداها عن الأخرى وإرشادها على حدة دون إخلال بالمعنى ، ذلك لأن الشاعر كان يعلم تماماً أنه لا يمكن إنشاد مثل هذه الملحمة الطويلة مرة واحدة ولكن على المنشد أن يختار من فصولها ما يشاء ، فمن الواجب إذن أن تكون هذه الفصول ذات معنى كامل يفهمه السامعون دون شرح أو تعليق ويجدون فيه المتعة التي ينشدون ، أما الملحمة المدونة (مثل الإنياده) فهي أشد تماسكاً وأقوى ارتباطاً ، فإذا فصلت

أجزاؤها بدت مبتورة لأن معناها لا يكمل إلا إذا تليت كوحدة وهدفها لا يتضح من خلال الحوادث والأعمال بل من خلال المعاني والألفاظ .

وهناك فرق آخر بين الملحمتين في الأسلوب واللغة . فالشاعر الذي يدون أشعاره عليه أن يهتم بصياغة العبارة ويتحاشى التكرار ولا يقع في التناقض حتى تكون ملحمة منسجمة الأجزاء ، مضطردة في المعنى لذا لا يلجأ إلى ترديد نفس العبارات والفقرات والآيات كما كان يفعل هوميروس ولكنه يهتم بانتقاء الألفاظ والتغيير في المفردات والتعبير عن المعنى الواحد بطرق متعددة ، وعند ما يجري حواراً على لسان شخصياته لا يجعلهم يرددون الصيغ والألفاظ التي ألفوا استعمالها عند هوميروس ولكن ينطقهم بكلمات يختلف بعضها عن بعض إختلافاً تاماً لأنه يميل إلى الدقة في التعبير والتنويع في الأسلوب ولأنه يحاول تركيز المعاني في كل بيت فيجعل لكل كلمة مدلولاً مستقلاً لجذب إنتباه القارئ . ويفرض عليه الاهتمام بما يتلو . لذا امتازت الإلياذة بتركيبها الفني والفاظها المنتقاة وعباراتها المصقولة ومعانيها الغزيرة ، بينما اتصفت الإلياذة بضخامة الموضوع وتسلسل الأفكار وصراحة التعبير وسمو العواطف وقوة التأثير لأن صاحبها كان يعتنى بجوهر القصة ويعرضه بطريقة مشوقة جذابة لا يقف طويلاً عند التفاصيل الدقيقة ولا يحاول أن يفصح عن سعة إطلاعه وإتساع ثقافته ، ولكنه كان يسمو بأفكاره ويعبر عنها تعبيراً سهلاً سريعاً يأخذ بالباب السامعين ، لأن بساطة الفكرة وسهولة التعبير تقربه منهم وتجذبهم إليه وتجعلهم يشعرون بأنهم في عالم مألوف لهم بينما يجد قارئ الملحمة المدونة شعراً مصقولاً نظماً في أسلوب صعب يحتاج إلى تفكير عميق ونأن في القراءة حتى يتم فهمه ويستساغ معناه .

وتختلف الملحمتان أيضاً في تصوير المجتمع الذي تظهران فيه . فالملحمة

الشفوية تهتم بتصوير البطولة كما فهمها الناس في عصر هوميروس ، بطولة فادرة يتحلى بها اخيليوس وهكتور وأچاكس ولا يقف في وجهها إنسان إلا إذا كان ندا لهم في الشجاعة، أما الملحمة المدونة فتجرى حوادثها في مجتمع مغاير . حقاً إن أبطال الانياذة يشبهون أبطال الالياذة والأوديسا في بعض أعمالهم ولكنهم يختلفون عنهم في أخلاقهم وتصرفاتهم وأهدافهم ، فأخيليوس يمتاز بالبطولة الحققة والشجاعة الفائقة ، ويفوق الجميع في البسالة والجرأة ، يهدف دائماً إلى تحقيق مجد خالد وشهرة ذائعة في الحياة وبعد الممات ، لذا لا تأخذة شفقة بمن يذريه ولا يرحم إنساناً يعتدى عليه ، إنه يعتز بنفسه إلى درجة الغرور ويحافظ على كرامته إلى حد المبالغة لأنه يعيش في مجتمع يفتخر أولاً وقبل كل شيء ، بعراقة الأصل ، ويقدر صفات النبل والشرف ويمجد البطولة لأن به طبقة من الفرسان النبلاء يطمحون في بلوغ المجد عن طريق المغامرات التي تتطلب منهم صبراً شديداً ومجهوداً جباراً ، فاذا نجحوا في بلوغ أهدافهم اعتبروا أبطالاً وشهبوا بالآلهة ، لكن أبطال الانياذة غير هذا البطل لأن ناظمها كان يعيش في مجتمع غير ذلك المجتمع ولذا تختلف فلسفته كل الاختلاف عن فلسفة هوميروس ، فمع أن فرجيل كان ، كما رأينا ، تليذاً وفيأله ، اقتنى أثره وقلده في كل شيء ، لكنه اضطر إلى إدخال تغييرات جسيمة على الشخصيات التي اقتبسها عنه ليصور المجتمع الروماني ، فاستلهم الماضي ونقل عنه ثم صورته في ضوء الحاضر الذي يعيش فيه ، وتنج عن ذلك أنه صور البطولة تصويراً يختلف تماماً عما ورد عند هوميروس فجعل لها مقياساً جديداً وجعل لها هدفاً اجتماعياً سامياً ، وأصبحت الملحمة في يده مجموعة من الأناشيد القومية التي تتغنى بمجد الوطن وتعلي من شأنه وتقديس الواجب الاجتماعي لأن البطولة الحققة عنده هي الإخلاص

لروما والتفانى في حبها والتضحية من أجلها ، فهو ينسب إلى أيناس بطل
الإنبادة بعض أعمال أغسطس ويسند إليه الدور الذي قام به الإمبراطور
ليرفع روما إلى قمة المجد ويربط بين ماضيها التالد وحاضرها العظيم . فكأنه
فكر في نظم الملحمة ليمجد أغسطس ويتغنى بحكمه ، ولما وجد أن هذه الفكرة
وحدها لا تكفى ، ربط الحاضر بالماضى وبين أن ما بدأه أيناس أتمه
الإمبراطور وأن روما التي أنشأها البطل ظلت تنمو وتزدهر حتى أصبحت
في عهده عاصمة لأوسع الإمبراطوريات^(١) .

ولم يكتف فرجيل بالتغيير في هدف الملحمة بل غير في موضوعها أيضاً ،
فجعل أبطالها يتحدثون في كل شيء ، يتكلمون عن فلسفة الحياة والموت
ويتأملون الكون وما يجري فيه ، وينطقون بمختلف النظريات التي يهدف
الشاعر إلى نشرها والمعلومات التي يريد تلقينها ، وهذا ما لم يفكر فيه
هوميروس مطلقاً لأنه لم ينظم الشعر ليعلم الناس ولكن كان ينشده ليروح
عنهم . فهو لم يتغن بشجاعة أخيلئوس وذكاء أوديسيوس وقوة هكتور
ولم يعجب بشخصياتهم من أجل أعمالهم القومية أو مواقفهم التاريخية ،
ولم ينطقهم بنظرية معينة أو رأى خاص ، ولكن فرجيل وتاسو وملتون
ملئوا أشعارهم بالآفكار الدينية والنظريات السياسية والاجتماعية لأنهم ،
كما قال الناقد دريدن ، ينظمون أشعارهم ليفيدوا الناس ويعلموهم ، ومن
يهدف إلى تعليم القارئ يجد صعوبة في عرض الموضوع ومتابعة أحداثه
لأنه مفيد بتفاصيل أخرى لا تمت إلى القصيدة بصلة ، فهو مضطر إلى الكلام

(١) الإنبادة : ١ : ٢٧٩ : وسوف تكون لأحماد أيناس إمبراطورية مترامية

الأطراف ، لا حد لها (sine fine) .

عن مشكلة تشغل بال معاصريه ، وهو مضطر إلى الإشارة إلى حادثة يعرفونها ويهتمون بها .

فرجيل في مطلع الإنياذة يعلن أنه سيتحدث عن أصل الشعب اللاتيني ونشأة روما ^(١) وعن رسالة أينياس ، جد الشعب الروماني ، الذي سيبني أعظم امبراطورية في العالم ^(٢) . وهو لا يتردد مطلقاً في إظهار علمه وسعة إطلاعه ، فيذكر أساطير هوميروس ويشير إلى نظرية الذرة عند لوكريتس (Lucretius) شاعر الرومان الفيلسوف ، ويقلد شعراء الاسكندرية في اهتمامهم بتصوير الحب والإسهاب في وصفه والإكثار من قصصه في ملاحمهم ، فيحاكي شاعر الأراجونوتيكا ، أبولونيوس الرودسي ، في تحليل هذه العاطفة ^(٣) ، فيخصص لها نشيداً من أناشيد الإنياذة يتحدث فيه عن حب ديدو لأينياس ، ويعد هذا النشيد أروع جزء في الملحمة إن لم يكن أروع أشعار فرجيل كلها ^(٤) ؛ ولكن هذه الروعة لم تمنع النقاد من أن يعيبوا على الشاعر أنه خرج على التقاليد الأدبية وأقحم في الملحمة موضوعات لا تمت إليها بصلة وابتكر نوعاً أدبياً جديداً ، لا هو بالملحمة ولا هو بالرواية ولكنه مزيج منهما ، ^(٥) .

(١) الإنياذة : ١ : ٦ — ٧ .

(٢) الإنياذة : ١ : ٣٣ ، ٢٧٨ .

(٣) كان أبولونيوس الرودسي (٢٩٥ — ٢١٥ ق م) أول من حلل العاطفة الغرامية في الملحمة وأسهب في وصفها وبرع في تحليلها ؛ ولقد أكتبه الأبيات التي وصف فيها حب ميدياسون شهرة فائقة .

(٤) أهمها وأشهرها ملحمة الإنياذة ، وقصيدة عن الفلاحة ، ومقطوعات قصيرة عن حياة الرعاة .

(٥) Grant (M.), Roman Literature, Cambridge, 1954, p. 193.

تلك ملحمة فرجيل المدونة التي يتكلم أبطالها في الدين والفلسفة ويناقدون النظريات العلمية وينقدون الأعمال الأدبية ويدرسون الآثار الفنية ، تلاها شعراء العصور الوسطى والنهضة الأدبية فاعجبوا بها وعملوا على تقليدها فاتخذوا من شخصياتها أمثلة يحذون حذوها ، فلم يهتموا بتصوير بطولة الفرد كما فعل هوميروس بل انصرفوا إلى وصف الحوادث الهامة التي كانت تجري في أيامهم . فتأسو تأثيره أحداث عصره فينظم ملحمة تصف الحروب الصليبية وتتغنى ببطولة الفرسان والأبطال الذين حاربوا فيها ، وملتون يستعرض تاريخ بلاده ويشيد بعظمتها ويندد بأخلاق معاصريه ويعيب عليهم التنكر لمبادئ أسلافهم ويحضهم على التمسك بالمثل العليا حتى يستردوا مجدهم القديم ، وما زاد في تعلق هؤلاء الشعراء بفرجيل أنهم كانوا يكتبون بنفس اللغة التي استخدمها أو بلغة مشتقة منها وأنهم كانوا يعيشون في مجتمعات تشبه المجتمع الذي عاش فيه وتختلف عن المجتمع الهومري^(١) . لذا اختلفت ملاحظتهم عن الإلياذة والأوديسا في الموضوع والهدف وفي الأسلوب والصياغة ، فغلبت عليها الصنعة واصطبغت بصبغة علمية جافة أفقدتها البساطة والوضوح وذهبت بكثير من جمالها الشعري وتأثيرها القوي . فحق لنا القول بأن هذه الأشعار لا تشبه الإلياذة والأوديسا إلا في أنها من نوع أدبي واحد يتفق في الإسم ويختلف في التفاصيل والخصائص ولاعجب في ذلك لأن هوميروس نظم ملحمتيه بعد أن ضرب في ربوع البلاد واختلط بعامة الناس وخصتهم واستمع إلى أغانيهم وحضر مجالسهم وحفظ رواياتهم وسجل أخبارهم ، فجاءت أشعاره شاملة جامعة يحبون سماعها

ويرددون أناشيدها لأنها تتغنى بإسلافهم وتمجد أبطالهم وتتجاوب مع
مشاعرهم وترتبط بهم اشد ارتباط ، اما غيره من الشعراء فقد عاشوا
في المكتبات ونظموا ملاحمهم بين أكداس الكتب والمجلدات فلتوها
بمختلف النظريات وشتى الموضوعات التي تخص فئة قليلة من الناس ، فلم
يكتب لأشعارهم الذبوع والإنتشار ، وكان مصيرهم النسيان ومصير
هوميروس الخلود مع الزمان ...

المراجع

1. Allen (T. W.): *Homér, Origins and Transmission*, Oxford, 1924.
2. Bassett (S. E.): *The Poetry of Homer*, Berkely, 1938.
3. Berard (V.): *Introduction à l'Odyssée*, 2 Vols., Paris, 1933.
4. " : *Homère, Odyssée*, Paris, 1944.
5. Bowra (C. M.): *Tradition and Design in the Iliad*, Oxford, 1930
6. Bowra (C.M.): *Heroic Poetry*, London, 1925,
7. " : *From Virgil to Milton*, London, 1945.
8. Edwards (G.H.): *The Odyssey of Homer*, Cambridge, 1952.
9. Evelyn-White (G): *Hesiod, the Homeric Hymns*, Harvard, 1943.
10. Geddes (D.) : *The Problem of the Homeric Poems*, London 1878.
11. Grant (M.) : *Roman Literature*, Cambridge, 1954.
12. Hadas (M) : *Ancilla to Classical Reading*, Columbia, 1954.
13. Highet (G.) : *The Classical Tradition, Greek & Roman Influences on Western Literature*, Oxford, 1949.
14. Jebb (R. C.) : *Homer, an Introduction to the Iliad & the Odyssey*, Glasgow, 1888.
5. Khafaga (M.S.) : *Absolutio Helenae*; Reprint from the *Bulletin of the Faculty of Arts, Cairo University*, Vol. XIV, Part I, May 1952.
16. Lang (A.) : *Homer & his Age*, London, 1906.
17. " : *Homer & the Epic*, London, 1893.

18. Leat (W.) : Homer & History, London, 1915.
19. Mackail (J.) : Penelope in the Odyssey, Cambridge, 1916.
20. Mazon (P.) : L'Iliade, Paris, 1948.
21. Murray (G.) : The Rise of the Greek Epic Oxford, 1924.
22. Otto (W.) : The Homeric Gods, trans. by Moses Hadas, New York, 1954.
23. Peyre (H.) : L'influence des Littératures Antiques sur la Littérature Française, Paris, 1941,
24. Robert (F.) : Homère, Paris, 1950.
25. Severyns (A) : Le poète et son Oeuvre, Bruxelles, 1946.
26. „ „ : Homère, le cadre historique, 1944.
27. „ „ : Homère, l'artiste, 1948.
28. Symonds (A.) : The Greek Poets, London, 1898.